

جمالية الخط العربي

عمر محمد الحسن درمة

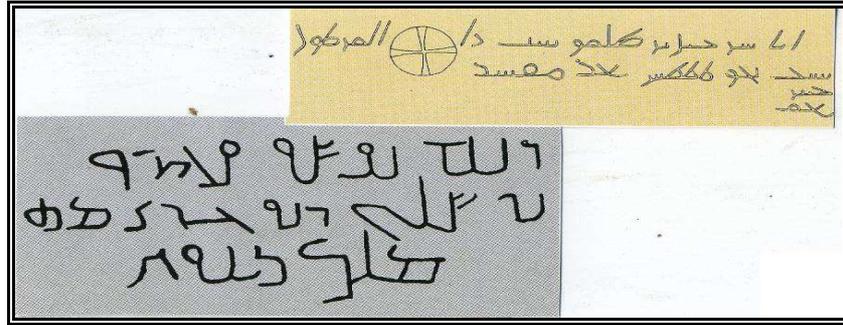
كلية الفنون الجميلة والتطبيقية - جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، ص. ب. 407، الخرطوم.

المقدمة:

قال تعالى [إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم] وقال أيضاً [إن والقلم وما يسطرون] وأن النبي (ص) والخلفاء الراشدين ومن تولى أمر المسلمين من بعدهم ما فتنوا يحثون على الاهتمام بالقراءة والكتابة .. ومما تقدم يظهر جلياً أن الدين الإسلامي قد أبدى اهتماماً فائقاً للقراءة والكتابة واعتبرهما من بعض متمات وعي الإنسان المسلم بدينه. فبالحرف العربي يدون وينشر القرآن والإسلام وأحاديث الرسول (ص) بين مشارق الأرض ومغاربها فخرج الخط بذلك عن مجرد كونه وسيلة تعبير وإيصال إلى غاية في التفاضل بغيره من الخطوط الأخرى بتلك القدسية التي عززت من مكانته ووثقت الصلة بين جمالياته ودلالاته اللفظية والمعنوية.

أصل الخط العربي وتطوره:

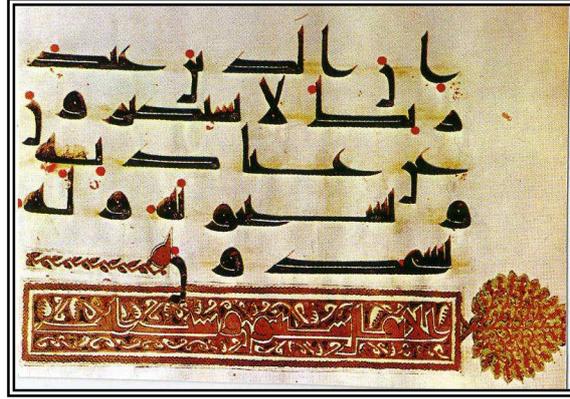
اختلف كثير من الباحثين مثل [القلقشندي، ابن حيان التوحيدي، مصطفى أو غور درمان وغيرهم] في أصل الخط العربي إلا أن أكثرهم يرجح أنه من أصول سريانية [أرامية] منحدره عن طريق الأنباط (وهم من القبائل العربية) أي أن أصله هو الكتابة النبطية، ويرجع الباحثون ذلك إلى النقوش المكتشفة من مدائن صالح وحران وأم الجمال. (شكل 1)، مما يعضد أن الخط العربي نشأ في شمال الجزيرة العربية^[1].



شكل (1): نقش حران (أعلى) نقش أم الجمال (أسفل)

يري ابن خلدون في مقدمته إن الخط العربي يعود إلى الخط المسند الحميري [نسبة لقبيلة بني حمير] أي أنه نشأ في اليمن ومنها انتقل إلى الحيرة ومنها إلى قريش^[2] وبمقارنة الخطوط القديمة الجنوبية والشمالية للجزيرة العربية نجد أن بعض التشابه في بعض الحروف، فالكتابة التي ظهرت في الجزيرة العربية وأطلق عليها خط الجزم (المنقوط والمشكل) كانت وليدة تفاعل طويل عبر رحلات التجار العرب بين الشمال والجنوب. كان الخط المسند الحميري أكثر صلابة (خالي من الحركة الدائرية والمرونة) من الخط النبطي، لذلك تراجعت الكتابة بالخط المسند وبدأت الكتابة بالخط النبطي لأنه أكثر نعومة (كثير الحركة الدائرية والمرونة) وأسهل استخداماً واستفاد منه عرب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده في تطوير كتاباتهم لذلك تطور الخط العربي^[3].

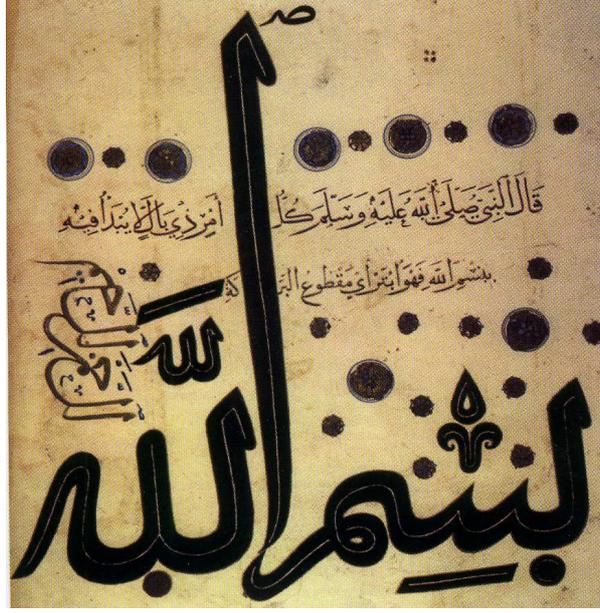
وظهر الخط الكوفي [نسب إلى مدينة الكوفة التي ظهر فيها] الذي امتاز بلمسات زوايا الجزم والوضوح أكثر ولين الحروف ثم تطور ليظهر خط النسخ في عهد بني أمية والذي يمتاز باستقامة بعض حروفه واستدارة البعض الآخر وبتدرج القلم من حيث السمك وهذه تُعتبر دلائل جمالية. (شكل 2)



شكل (2): الخط الكوفي القديم

وفي عهد بني أمية ظهر بعض الخطاطين منهم خشنام وخالد الهياج وقطبة المحرر وغيرهم من الذين جودوا في كتابة النسخ القديم فظهرت أربعة خطوط هي الجليل والطومار والتثلث والنصف، ويعتقد أن قطبة المحرر هو أول من أبدع في تطوير الخط العربي^[4]. في

ذلك العهد أُضيفت النقاط إلي بعض الحروف لتفادي اللحن الذي شاع بين الناس، وكان ذلك على يد أبي الأسود الدؤلي استناداً إلى بعض الترفيشات القديمة [أي التنقيط]. (شكل 3)

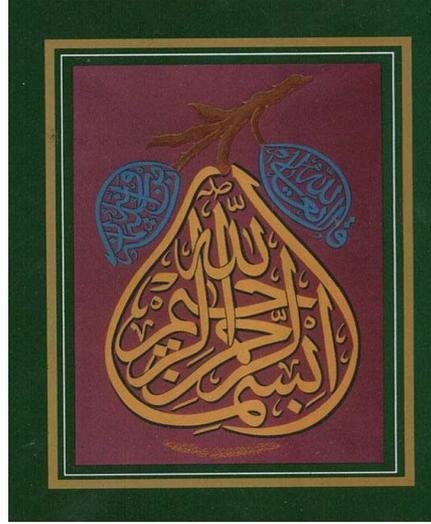


شكل (3): ترفيشات وتنقيط الكتابة القديمة

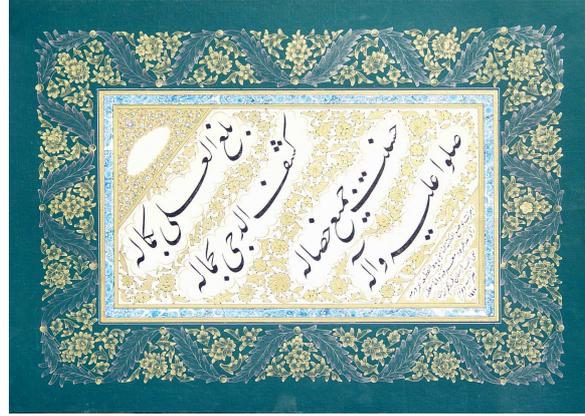
وفي العهد العباسي الأول انتقلت جودة الخط العربي من الشام إلى العراق وأصبحت بغداد مركزاً مهماً لتطوير الخط العربي، وبعد سقوط الدولة العباسية انتقل مركز الحضارة العربية إلى القاهرة، فأجاد الخطاطون في مصر وأضافوا تحسينات كثيرة، فصار الخط على أيديهم في مستوى عال من الجودة والدقة^[5].

وفي فترة الخلافة العثمانية اهتم الخطاطون الأتراك بالحرف العربي وطوروه حتى بلغ مكانة عالية من التجويد والتطور خاصة توظيف الخط في أشكال هندسية أو على أشكال من الطبيعة لتكوين اللوحة الخطية. (شكل 4)

ثم ظهرت مدرسة جديدة بالغة الأهمية غيرت مفاهيم التجويد والتحسين وجعلت للحروف مذاقاً فنياً له صورة بصرية موضوعية وهي المدرسة الفارسية والتي اهتمت فقط بما يسمى بالخط الفارسي المنسوب إليها^[6]. (شكل 5)



شكل (4): خط ثلث على شكل كمثرى

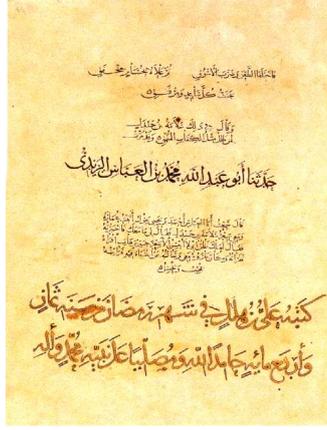


شكل (5): خط فارسي (عمر درمة)

أنواع الخط العربي وخصائصه الجمالية:

يُعتبر الفن الإسلامي، الفن الوحيد الذي اتخذ من الخط العربي عنصراً زخرفياً مهماً، ويرجع ذلك إلي ما أصدره الخلفاء الأمويين من أوامر صارمة جعلت الكتابة على الطراز أي النسيج والورق أمراً ضرورياً، لذلك تطور الخط العربي بسرعة واتخذ أشكالاً زخرفية متنوعة، وأسماء فنية متعددة على الرغم من بساطة نشأة هذا الخط وبداية تكوينه^[17].

ولعل أقدم الخطوط العربية هي تلك التي تفاعلت كما ذكرنا في جزيرة العرب من شمالها إلى جنوبها، حتى ظهر الخط العربي القديم الذي وجد قبل الإسلام، ثم انتشر بعده وأخذ في التطور بوضوح حروفه، والتنوع باختلاف رسم حروفه حتى صارت له أسماء عديدة وأصبح يطلق عليه أسماء المدن، كالمكي والمدني والشامي والكوفي وغيرها. غير أن هنالك تطوراً آخر ساهم في تنوع الخطوط وهو التنوع الحاصل من تغيير حجم القلم ونوعه ونوع الورق والمادة المكتوب عليها، ومن هذه الخطوط: الطومار، مختصر الطومار، الثلث، خفيف الثلث، الرقاع، المحقق والغبار^[8]. (شكل 6)



شكل (6): نماذج للخطوط أعلاه.

وقد قام الوزير [ابن مقلة] ومعه أخوه أبو عبيدة بوضع هندسة للحروف العربية، حيث كانت تسود خطوط لينة غير كوفية، وجاء بعدهما ابن عبد السلام الذي قام بتتقيح بعض الحروف وطور في رسمها وصارت بعد ذلك قواعد وأسس خط الثلث على طريقة ابن مقلة ثابتة وواضحة^[9].

لقد كان الخط العربي وسيلة للعلم، ثم أصبح مظهراً من مظاهر الجمال، وما زال ينمو ويتنوع ويتعدد حتى بولغ في أساليب التحويرات الجريئة فاعتبروه نوعاً وقد بلغت الأنواع نحو ثمانين نوعاً ثبتت أخيراً على ستة أنواع أساسية هي: الكوفي والنسخ والثلث والرقعة والديواني والفارسي^[10]. (شكل 7)



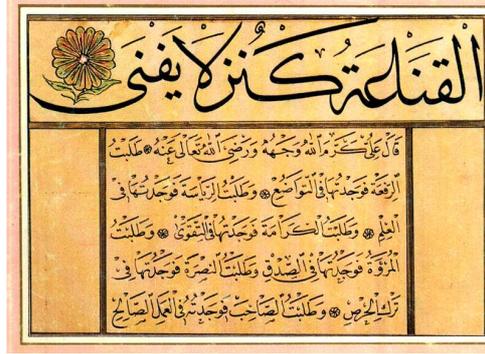
شكل (7): نموذج لأنواع الخطوط أعلاه

إن الحروف العربية تمتاز بأنها تكتب متصلة في أغلب الأحيان، وهذا يعطي للحروف إمكانية تشكيلية كبيرة دون أن يخرج عن الهيكل الأساسي لها من حيث تراصف الحروف وتراكبها وتلاحقها، ويمكن أن تلاحظ إن طريقة الوصل بين الحروف تختلف من نوع لآخر من أنواع الخط العربي، كما في الكوفي والنسخ والتلث والديواني والفارسي، وهذا الاختلاف ناتج عن الأسس المتبعة في كتابة كل خط من هذه الخطوط حيث نجد الزوايا والخطوط المستقيمة سائبة في أنواع الكوفي. (شكل 8)



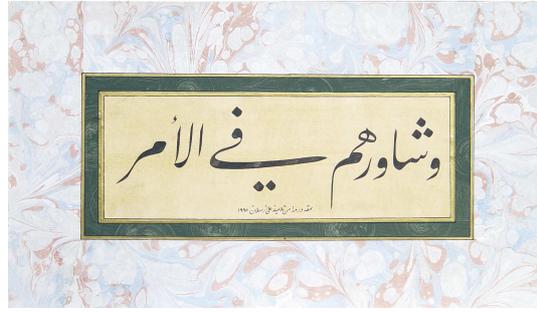
شكل (8): خط كوفي (الزوايا والخطوط المستقيمة)

ونجد الأقواس والزوايا في مكان النسخ والتلث. (شكل 9)



شكل (9): خط نسخ وثلث (الأقواس والزوايا)

بينما تكون الأقواس الرشيقة المدات الانسيابية لوصلات سماكات مختلفة في الخط الفارسي لتعطي للحروف المتباينة في عرضها تناغماً موسيقياً رائعاً. (شكل 10)



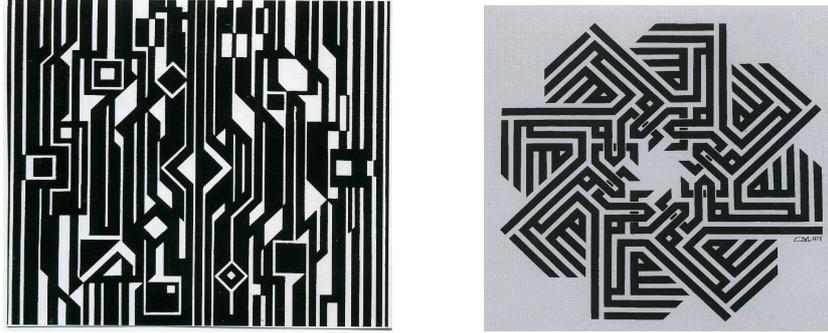
شكل (10): خط فارسي (مدات وسماكات مختلفة)

إضافة إلى علامات التشكيل والإدغام والتي تعتبر عناصر تزيينية زخرفية لإتمام التناسق وملء الفراغات في خطوط النسخ والثلث^[10].

جماليات الخط العربي:

يقول القلقشندي في كتابه [صبح الأعشى] إن اللفظ معني متحرك والخط معني ساكن يفعل فعل المتحرك. وبما أن اللفظ فيه العذب الرقيق السائغ في الأسماع، كذلك الخط فيه الرائق المستحسن الأشكال والصور^[11]. وحقيقة الحركة هذه التي حدثنا عنها القلقشندي في الحيز الساكن أي في الحرف المكتوب الموجود، كانت من الحقائق التي استوعبها الفن

الإسلامي وأقام أصوله عليها، وبها بني الفنان المسلم واقعية الشكل الخارجي، والتزم التحرر في تناوله للأشكال وأعاد رؤيتها من جديد في صورة تركيبية مختلفة عن ما هو قائم في الطبيعة الموضوعية والتي بها أصبح مفهوم العمل الفني قائماً على التجريد التصويري الذي لا سكون فيه بل هو حركة مستمرة متدفقة^[12]. ولذلك استطاع الفنان المسلم في إبداعاته المتنوعة واستخداماته المتعددة للخط العربي أن يسبق حركة الفن التشكيلي المعاصر في نزوعه إلى التجريد هروباً من التشخيص في بداية الدعوة الإسلامية، وهي حالة فرضتها عليه ضرورة الامتثال لأوامر الفقهاء الذين فسروا بعض أحاديث الرسول (ص) على أنها تحريم للتصوير، وإن استقر رأي الكثير منهم على إن هذه الأحاديث كان يقصد بها في البداية صرف المسلمين عن عبادة الأصنام. ومن هذا المنظور للوحات الشخصية، نستطيع أن نقول أن الفنان المسلم أنجز أعظم لوحات تجريدية باستخدامه وحدات الحرف العربي في التشكيل وقد ساعده في ذلك قابلية الحرف العربي للمد والاستدارة والبسط والصعود والهبوط واللين في طريقة كتابته^[13]. ولذلك يؤكد الباحث المعاصر محمد البغدادي، أنه إذا كان فيكتور فازاريلي وهو رائد مدرسة الفن البصري النمساوي قد أنجز أفضل أعماله في الفن البصري المعاصر، فإن الفنان العربي كان قد سبقه إلى ذلك بقرون عدة وإن اختلفت طرق المعالجة، فقد استخدم الفنان العربي المسلم وحدات الخط العربي في تكوينات التضاعف والتخلخل متباعدة مرة ومقاربة أخرى في تناغم حركي وتشكيل رائع. لتضعنا في النهاية أمام فن بصري بالغ الجمال منتظم الحركة^[14]. ونجح الفنان العربي منذ أمد بعيد في تحريك مساحات الأبيض [سطح الورقة] والأسود [الحبر] والزخارف الرقيقة والنمونات بين شموخ الحروف وقوتها، وفعل ذلك منطلقاً من رؤية فنية محسوبة بدقة وخبرة اكتسبها عبر ممارسات طويلة بإيمانه القوي بعمله وصبره العجيب للوصول إلي أعظم النتائج، حتى أننا نجد أن الفنان الكبير ليوناردو دافنشي أحد رواد عصر النهضة يقدم نصائحه لتلاميذه من أربعة قرون فقط والتي ما زال معمولاً بها حتى يومنا هذا فيقول: [إن الألوان تبدو أكثر وضوحاً إذا وضعت أضادها، فاللون الأبيض يبدو أكثر ضياءً مع الأسود] ولم يكن دافنشي يعلم أن أبا حيان التوحيدي قد سبقه في إبداء هذا النصح الفني بقرون عدة^[15] (شكل 11).



شكل (11): تكوينات التضاعف والتخلخل

يقول الباحث الأثري السوري عفيف بهنسي في حديثه عن هندسة الخط في اللوحة التشكيلية: لقد تبين أن في الخط المستقيم صلابة وتكلفاً بعيداً عن الجهد هو ضعف التعبير عن الجمال، ناقص المدلول، فهو لا يثير انتباهاً جاداً، ولكنه انتباه عنيف إذ يعبر عن القوة وعن القلق، كما يعبر عن الجفاف، أما الخط المنحني فهو خط الحركة التي تبرز بلا تكلف^[15]. ومن هنا يتضح أن هندسة الخط في اللوحة التشكيلية باعتباره أحد العناصر الأساسية في اللوحة كاللون والضوء والظل والتكوين... الخ، يمكن أن تقدمه لوحة الخط العربي أيضاً، بل كثير من الفنانين المعاصرين استفادوا كثيراً بل صاروا متميزين بين أقرانهم لأنهم قرروا أن يستفيدوا من هندسة الخط العربي في اللوحة التشكيلية وذلك لما يقدمه الخط العربي في تراكيبه المتشابهة في خط الثلث والديواني والكوفي المضفر. شكل (12، 13، 14)

شكل (12، 13، 14): الخط العربي في تراكيبه المتشابهة ثلث، نسخ، كوفي مضفر^[15].

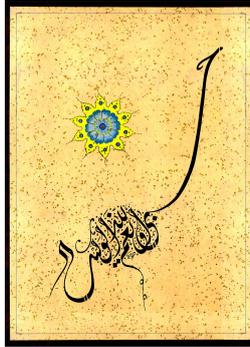
الخط العربي والمحاولات العصرية:

هنالك خوف من المحاولات العصرية التي تجري حالياً لتطويع الحرف العربي وتقريبه من الحرف اللاتيني، وجعله كتلة جامدة ليس لها أثر للقيمة الفنية فيها، وهناك خوف له ما يبرره من الاعتماد المطلق على هذه الحروف وترك الإبداع بل الخشية أيضاً من المقلدين غير الفنانين وخاصة الشركات التجارية التي تقوم بمسح الخط العربي طمعاً في الربح. وأيضاً هناك عملية [ممكنة] الحرف العربي حيث يتم تطويعه لكي يلاءم آلية التصنيع بحيث تستطيع أن تطبع آلياً ما تشاء من الخطوط، وهذا أمر يشكل خطراً حقيقياً على الحرف العربي، كما تشكل الحروف الجاهزة الخطر نفسه على الحرف والفنان. (شكل 15)

«طبق تمر» من باكورة إنتاج النخيل في الحامداب الجديدة

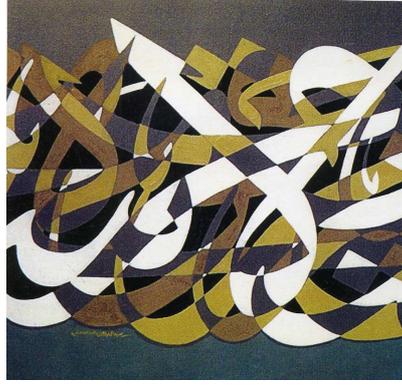
شكل (15): نموذج من الحروف العربية الجاهزة

وعلى جانب آخر تجاوز الحرف العربي الكتابة كعلم ليظهر قدرته الفنية في مجال الرسم، فإمكانية الرسم بالحروف العربية صفة مميزة لها لا تتوفر في حروف اللغات الأخرى، وقد أبدع الفنان العربي المسلم على الرسم بالخط وظهرت آيات قرآنية وأحاديث وأشعار وحكم بأشكال أباريق وحيوانات وطيور وغيره على درجة فنية عالية. (شكل 16)



شكل (16): تشكيل بالحرف العربي على شكل طائر (عمر درمه)

ونجد اليوم محاولات تطويرية أخرى في هذا المجال لدى فنانيين عرب، ولقد تمكن هؤلاء الفنانيين من رسم أشكال حيوانية وإنسانية ونباتية بالحرف العربي وليس الأمر بجديد، فهذه الرسوم قديمة وكان جديراً أن تتطور لولا انشغال الفنانين العرب بالمدارس الانطباعية والتكعيبية والسريالية والتجريدي. وفي خضم عملية التحديث لا يسعنا أن نستبعد أهمية التكنولوجيا الحديثة في استعمال اللون والمواد الحديثة في عملية الرسم. يقول الباحث [قيس خزعلي جواد] في مجلة الوحدة إن انطباعية الخط العربي في الحيز المكاني وقدرته على التشكيل تتيح للفنان إمكانات فائقة من خلال تجريد الخط واستقراء معانيه الروحية والشعرية وموسيقاه ودلالاته اللغوية^[16]. (شكل 17)



شكل (17): نموذج لتجريد الخط

الخلاصة:

مما سبق ذكره نخلص إلي أن الخط العربي هو رائد الفنون الجميلة، وهذا نابع من طبيعة حرفه والذي يعتمد على استنباطه من الطبيعة [النبات والحيوان] إضافة إلى اعتماد أشكاله على الرسم، والتدرج في سُمك القلم المستعمل في الكتابة حيث نجد التدرج في السُمك حتى في الحرف الواحد، إضافة إلى إمكانية الخط العربي في التصميم وقابليته للتصميم في الأشكال المنتظمة وغير المنتظمة والتي تعطي نتائج متشابهة من حيث القيم الجمالية للوحة الخطية، كذلك التناسب الموجود بين المساحة المخطوطة والمساحة المخطوط عليها وهذا ما يميز خصوصية هذا الفن.

كما ولا بد من التفريق بين الخط العربي الكلاسيكي [المكتوب يدوياً] والخط الطباعي، فالأول القصد منه إبراز القيم الجمالية للخط العربي من خلال اللوحة الخطية التشكيلية، والآخر الذي يعتمد على المكننة سواء كان بالحروف الطباعية القديمة مثل [حروف الرصاص] أو الحديثة [حروف الحاسوب] والتي تفتقد للنواحي الجمالية وتصب في مجال العمل الطباعي التجاري الذي يتطلب السرعة في التنفيذ.

المراجع:

- 1- سيد فرج راشد، الكتاب القديم، مجلة عالم الفكر ج 1.
- 2- ابن خلدون، المقدمة، ص: (418).
- 3- على محمد أمين، عبقرية الخط العربي، (1992)، مجلة الوحدة، العدد 90 - بيروت.
- 4- عفيف بهنسي، الخطوط العربية، (1975)، مجلة الوحدة، العدد 11 ليبيا.
- 5- ناجي زين الدين، (1968)، مصدر الخط العربي ص: (333) بغداد.
- 6- محمود حلمي، (1983)، مجلة عالم الفكر، العدد 4.
- 7- أخوان الصفا، (1957)، الرسائل ج 3 دار صادر، بيروت ص: (144).
- 8- القلقشندي، صبح الأعشى، ج 3، ص: (144).
- 9- ناجي زين الدين، بدائع الخط العربي، ص: (457، 465).
- 10- على محمد أمين، (1992)، عبقرية الخط العربي، مجلة الوحدة، العدد 9، بيروت.
- 11- القلقشندي، صبح الأعشى، ج 3، ص: (3).
- 12- محمود حلمي، (1983)، مجلة عالم الفكر، العدد 4.
- 13- بركات محمد مراد، (2004)، الخط العربي، فلسفة التأصيل الجمالي والتفريغ الفني، مجلة حروف عربية، العدد 12، ص: (4).
- 14- محمد البغدادي، (1996)، موسيقى الخط العربي عند ابن حيان، مجلة فصول، ج 10، العدد 1.
- 15- عفيف بهنسي، علم الجمال عند ابن حيان التوحيدي، ص: (175، 188، 189).
- 16- قيس فزعلي جواد، (1984)، الخط العربي هندسيته وتشكيلياته، مجلة الوحدة، العدد 2.